

مع د. علي الكواري في كيرا لا – الهند

لحدان بن عيسى المهدي

وهي ترتب لي حقيبة السفر إلى الهند، كيرالا، أتيت لها بكتاب "تنمية للضياع أم ضياع لفرص التنمية" للدكتور علي بن خليفة الكواري كي تضعه في الحقيبة، فعرفت الكتاب من عنوانه فقالت، وهي تعلم حساسيتي لمثل هذه المواضيع : " الواحد لي سافر يشوف له شي يوسع خاطره مهب يضيق خاطره"، وقد صدق حدس زوجتي في ذلك فقد كانت قراءة الكتاب مؤلمه رغم إنها شيقة.

ربما حصلت على هذا الكتاب متأخرا لكنني عندما بدأت قراءته لم استطع وضعه، فقد صحبني في المطار في الطائرة في كل مكان في كيرالا وكان د. علي يحدثني بهذا الحديث الشيق المؤلم في كل وجهة قصدتها.

اختلفت عندي في قراءتي المتعة بالألم، وقد كنت سمعت هذا التعبير من احد الأجانب قال " Mixing pain with pleasure" ولم اعرفه وقد عرفته الآن ، الألم من حالنا الذي وصلنا إليه بزيادة معدل تسارع الانحراف، والمتعة في أن هذا الانحراف شخص سببه الكواري بحرفية علمية، وإذا، معروف علاجه.

المشكلة الحقيقية انك تشعر بالمرض ولا تعرف السبب، لكنك إذا عرفت سببه وشخصه لك دكتور ماهر فما أسهل الدواء، حتى ولو كان مرا، فالتشخيص كما يقال تسعون في المائة من العلاج.

ساق د.علي الكواري في كتابه القيم هذا إحصائيات كثيرة قيمة واخرج منها نتائج ودلالات علمية منطقية تشخص حالة المجتمع القطري وتحولاته منذ اكتشاف النفط حتى منتصف التسعينيات وقت صدور الكتاب، والخمسة عشر سنة التالية كانت مصدقة لجل استقرارات الكواري حول تحولات المجتمع إن كان لازال هناك عندنا مجتمع.

سبق الكواري الكثير في إخراج مصطلحات تعبر عن وضع المجتمع القطري في ظني لم يسبقه إليها احد فذكر أن المجتمع تحول من حال الإنتاج إلى حالة الريع أي أن المواطن كان مساهما في الإنتاج العام من خلال إنتاجه الشخصي كإنتاج الغوص مثلا وكان بذلك يملك قرار مجتمعه، ثم تحول إلي حالة الريع وهو ريع النفط بالذات فأصبح ريعه معتمدا فيه على الدولة على عوائد النفط فلم يعد يستطيع التحكم في قرار المجتمع لأنه لم يعد يسهم وبالتالي يتحكم في الإنتاج.

مصطلح آخر ذكره الكواري يعجب ويؤلم في نفس الوقت وهو حقيقة مرة، وهو مصطلح ان مجتمعنا يمكن أن يطلق عليه "بقايا مجتمع" وهذا في رأبي هو أدق ما يمكن أن يوصف به مجتمعنا.

ذكر أن لفظ المجتمع يطلق على تجمع أو تجمعات بشرية يجمع بينها ولاء مشترك ومصير مشترك وهم مشترك وان هذا المجتمع يكون فيه الإناث أكثر من الذكور ويكبر بواسطة التكاثر الطبيعي لم تسببه، أما مجتمعنا والذي يمثل المواطنون نسبة ١٤ ٪، فإن الذكور فيه أكثر من الإناث-أعماله والوافدين للعمل- والتجمعات البشرية الموجودة عندنا في قطر كل له هم مختلف ومصير مختلف وولاء مختلف حتى بعض المجنسين القطريين فإن مصيرهم وولائهم مرتبط ببلدهم الأصلي لذلك فإن كثير من هؤلاء يحمل الجنسية القطرية لكنه مقيم في بلده الأصلي ويعمل هناك وليست قطر بالنسبة له إلا "بقرة حلوب" واعتذر عن هذا التعبير فقد أمني عزيزي القارئ قبل أن يولمك ، ثم ساق شبهة مقارنة مجتمعاتنا بالمجتمع الأمريكي من حيث هو مجتمع من اختلاط مهاجرين ومع ذلك فهو مجتمع متقدم وله خصوصيته الثقافية والاجتماعية، فقال إن السبب في ذلك والفرق هو أن المجتمع الأمريكي يمثل التيار الرئيسي بين السكان على الرغم من وجود مهاجرين، وقد استفاد المجتمع الأمريكي من الهجرة "التي يتم استيعاب بعض أفرادها ودمجهم في المجتمع الأمريكي وإكسابهم الثقافة الأمريكية وتعميق الانتماء لديهم ثم إعطائهم الجنسية بما لها من حقوق وعليها من واجبات.." انتهى "وان الهجرة لم ينتج عنها تفكك المجتمع بل زادت قوة وحيوية وغذته بالعقول والطاقات دون تحمل تكاليف إعدادها وإنشائها.." انتهى، فالمهاجر كي يقبل في المجتمع الأمريكي لابد وان يذوب في هذا النسيج الاجتماعي الخاص أولاً ويثبت ولاءه وبهذه الطريقة فإن المهاجر يعطي للوطن الأمريكي أكثر مما يأخذ منه.

اما عندنا فإن "الوافدين" هم الذين يمثلون التيار الرئيسي، ففي التعليم يقود الأجانب، وفي الخدمات الصحية يقود الأجانب، وفي الفن يقود الأجانب، وفي الإعلام يقود الأجانب، وحتى في البناء يقود الأجانب -الشركات الأجنبية مناط بها تنفيذ مختلف المشاريع النفطية والبنوية والتكنولوجية- بل وحتى في الرياضة يقود الأجانب، وهنا يأتي الخلل ويحدث التخلل الذي نراه ونحس به ونشتم رائحته.

وقد كنت دائما لا افهم التقليد التي تقوم به بعض الجهات الرياضية في نهاية البطولات الرياضية للأجانب كتليبس لاعبات التنس ثوب نشل أو تركيبهم على الجمال أو وضع الصقر على يد رياضيين أجنب، وكنت أتساءل كيف هو هذا التناقض بين ذوبان الهوية وبين هذه التقاليد، فأتى وصف الكواري "بقايا مجتمع" ليوضح معنى هذه الممارسات، فما هذه الإجراءات الاحتفالية إلا ملامح باهته لبقايا هذا المجتمع.

لن استطيع التعليق على كل ما جاء في هذا الكتاب فقد تحدث كثيرا وبدقة عن النفط والغاز وتربية اليسر- التعليم- وعن الإدارة الحكومية وإشكالاتها وتقارير الإصلاح التي كتبت منذ بداية الاستقلال، وعن الثروات البينية الزراعية والبرية والبحرية وكيف ان البحر كان ولا يزال مصدر الرزق لكنه إما مهدر أو غير مستغل، وغيرها من الإشكالات، تحدث عنها بحرفية علمية وتشخيص واعي دقيق اثبت الواقع صدقه.

غرقنا بالكم الهائل من التربويين الخليجين منهم والغير خليجين الملتحين منهم والغير ملتحين، الذين ملنوا إبصارنا وإسماعنا وافرغوا جيوبنا بما يعطوننا به من دورات نظرية تافهة مقولبة حول تربية الأبناء وتطوير الموظفين وكيف يتفوق التلميذ ويفوز الرياضي و" حلو تعيش بمسؤولية" و "ريكي" ثم موضة صنع القادة والمبدعين او التقدميين والنهضويين التافهين ونسوا أو تناسوا إن القائد يخلقه الله ولا يصنع من خلال دورة يعطيها من لا يملك ادني الصفات القيادية لا يملك إلا النفوه بتنميق الكلام، ولعل هذا أيضا مظهر من مظاهر ريع النفط والحياة المرفهة الذي تحدث عنها الكواري، الذي لم يقتصر فقط على "توكيل" أعمالنا المنزلية والوظيفية والتجارية لغيرينا بل تعداها حتى إلى توكيل تربية أبنائنا وإدارة حياتنا إلى غيرنا.

اين هؤلاء من مثل هذا الطرح الذي جاء في كتاب " تنمية الضياع وضياع التنمية" وأين هم من هذه العلاجات الحقيقية التي ينشدها المجتمع ، كثير من هؤلاء فاقد الشيء فلا يعطيه، تسللوا على غفلة من المجتمع كما يتسلل القط الطواف عند غفلة أهل البيت، وأنا لا أنكر هنا أن هناك بعض هؤلاء من المخلصين وله إسهامات طيبة في بعض المجالات.

ومع هذا فلا أدعي أن هذا الكتاب ليست عليه ملاحظات أو استدرابات، بل و لم يدع د. علي بن خليفة الكواري نفسه ذلك بل قرر هو إن هذا الجهد هو لفت نظر وتوعية مدعاة للنقاش و التنقيح والترجيح لكن يجب على كل قطري ولائه وانتمائه الى قطر -وليس كل مجنس ولائه وانتمائه لبلده الأصلي- وكل مسنول تهمة مصلحة هذا الوطن، يجب عليه قراءة هذا الكتاب والتعرف على الصورة التشخيصية الحقيقية لهذا المجتمع الباهت الملامح، لأنه لم يؤلف احد قط في مثل هذا الموضوع وبهذه النظرة الداخلية التشخيصية الواعية، فلعل وعسى ان تكون هناك حملة إصلاحية على مستوى القيادة والقاعدة المجتمعية تسترشد بمثل هذه الأطروحات العلمية العقلية الواعية يبتعد بها المجتمع عن "حلول جزئية أضرت الحكومات إضافة إلى ديون مالية نتيجة تغيرات عصر النفط وديون ايكولوجية نتيجة إستنزاف الثروة الطبيعية وهدر الموارد وديون اجتماعية نتيجة عدم تماسك المجتمع وديون اقتصادية نتيجة الخلل الإنتاجي وديون أمنية نتيجة الانكشاف على الخارج.." انتهى، وهذا الا يتأتى إلا بالحل المنشود وهو "...إشراك الناس عن كذب في العمليات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تؤثر على حياتهم.." انتهى.

لقد أمتني كثيرا قراءة هذا الكتاب كما توقعته لي زوجتي ، واكتشفت أن كتابته أيضا أمت د.الكواري فقد قال في نهايته إن "محاولة رصد الواقع من منظور مختلف كانت جهدا مؤلما لما يلاحظ من غشاوة يأس تعم اهل المنطقة.." انتهى

مع الأسف فارقتني د.علي الكواري في ردهة الفندق في "كوتشي" عندما أنهيت قراءة كتابه، يوجعني ألم المشكلة ويحدوني أمل الحل لما رأيته سابقا من بعض جهود الإصلاح على مستوى القيادة والقاعدة.

لحدان بن عيسى المهدي

Wasm03@yahoo.com

٢٠١٠ : نشر في جريدة العرب القطرية